مُناقشات

معركة الوعي العربي

بقلم قدري قلعجي

شبه فيكتور بوشيه حياة البشر بنهر عاصف التيار تقف على ضفته قوارب لاعداد لها وفي كل قارب منها ملاح ، فاما ان ينتظر هذا الملاح رحمة القدر فيظل واقفاً في مكانه ينظر الى الضفة الثانيــة نظر الجبان اليائس ، أو أن يستسلم للامواج الصاخبة تحمله على غاربها وتقذف به أنى شاءت ، وإما أن يقاوم التيار ويصارعه بقوة وعزيمة وبصيرة فيتغلب عليه ويشق عبابه ، فيمضي الى غرضه ويفوز بمطلبه ويظفر بالمجد لنفسه وللانسانية على السواء ..

تلك حياة البشر ، وهي ايضاً حياة الامم .. ومن نعم الحياة ان تنجب الامة العربية في نهضتها الحديثة ملاحـين جبابرة لا يبالون باقتحام الانواء وركوب الاخطار للوصول بأمتهم الى شاطىء الرفعة والكرامة والمجد..

هذا ما تبادر الى خاطري وانا أطالع النقد العاصف الذي أثاره مقال العلامة الاستاذ عبدالله القصيمي : « اقتباسات من انجيل لم تعرفه المجامع » في العدد الاخير من مجلة « الآداب »

ولم يكن ذلك جديداً بالنسبة لهذا الملاح العملاق الذي جبلته الطبيعة من شرر ونور .. فما اكثر ما أثارت ابحاثه مــن نقد الناقدين وتحامل المتحاملين ، منذ اصدر كتابه «هذي هي الأغلال» فأحدث في الاوساط الرجعية زلزالا لا تبرح ترتعد له وترتجف منه، وأوجد مدرسة فكرية كان نتاج الكاتب المصري الاستاذ خالد محمد خالد بعض ثمرها المرتجى ..

ولست أعتقد بان ثمة كتاباً عربياً قد استقبل من قبل المفكرين الأحرار بمثل الحماسة التي استقبل بها كتاب الاستاذ القصيمي، وكان من بين الفصول التي عقدها عنه الاستاذ اسماعيل مظهر مقال رائع استهل به عدد نوفمبر سنة ١٩٤٦ من مجلة «المقتطف» التي كان يتولى رئاسة تحريرها في ذلك الحين، قال فيه :

«هذه اول مرة يفرد المقتطف افتتاحيته للكلام في كتاب يصــدر في الشرق أو الغرب . ولا شك ان ذلك انما يرجع الى ان هذا الكتاب هو في تقديرنا يستحق هذه المنزلة وله أن يحتل هذه المكانة .

«ليس لنا بصاحب هذا الكتاب معرفة من قبــل ، ولم يدر بخلدنا ان استاذاً نابهاً كالاستاذ عبدالله القصيمي يمكن أن يخرج على أهل هذا الزمن بمثل هذه الافكار من بيئة بعيدة عن الاحتكاك بأفكار العصر الذي نعيش فيه ، ويذهب في تحليل العقلية الجامدة التي وقفت بأهل الاسلام القرون تلو القرون ، ذلك المذهب الحر المستند الى حقائق مقتطعة مــن صميم الحالة الاجتماعية والعلمية التي تكتنف اهل الشرق والمسلمين منهم خاصة .

«ونحن فوق هذا لا ننتصر للكتاب ولا لصاحب الكتاب ، وانما ننتصر لاعتقادنا الجازم بان الكتاب وصاحب الكتاب هما الى جانب الحق في تصوير عقلية المسلمين في هذا الزمن الذي دارت عجلته وظلت عجلة المسلمين واقفة، ولأن هذا العصر لا يواتي أهل النزعة الاخروية الــتي دسها على الاسلام مسلمون أو غير مسلمين ، ساءت نيتهم أم حسنت ، اولئك الذين أدخــلوا في الاسلام من نزعات الخنوع والتأخر والأنحلال ما صبغه بتلك الصبغة التي لا يرضاها لنفسه مسلم ، ويأباها الاسلام على كل المسلمين .

« أنتصر لهذا الكتاب لأني أشتم فيه روح القوة والجبروت والعزة التي هي من صفات الاسلام ، وليست الآن مــن صفات المسلمين ، وأتنسم فيه عبير حرية الفكر وحرية الضمير ، وأرى فيه هزة نفسية تصدر من أعماق الضمير الاسلامي على حقيقته الأصيلة ، لا على ظاهر تلك الأقوال الــتي دسها على الاسلام ونبي الاسلام ، مغفلون من اصحاب التقوى الزائفة ،أو مدلسون من اصحاب المذاهب المريضة ، أو مزورون من أهل السياسة ، او شعوبيون يودون لو ان العرب والعربية والعروبة تطوى صفحاتهن جميعاً من هذا الوجود ، أو دخلاء في الاسلام نقلوا اليه من مذاهب الزهد والنسك والباطنية ، هنوداً كانوا او روماً او فرساً او أغارقة ، ما كان سبباً في ضياع ملكهم وزوال سلطانهم ، امام تلك القوة الكاسحة وامام الخلق الثابت والنفس المتأججة التي ضرب بها الاسلام في اصول تلك الممالك، فهشمها وحطم ملكها وأباد سلطانها ، بعد ان نخر منهــا الزهد والنسك والباطنية العظم ، وعرق اللحم ، ، وخلفها حطاماً ، وجملها احاديث».

وبينما كانت الاوساط التقدمية ترحب بكتاب «هذي هي الاغلال» هذا الترحيب الحار ، كانت الاوساط الرجعية تشن عليه حملة شعواء بلــغ من عنفها وشدتها ان اباح بعض المتعصبين في المملكة العربية السعودية دمه ودعوا المؤمنين للتقرب الى الله بقتله !.. ثم عمدوا فملأوا الى احد الشبان المتحمسين فسلحوه بمسدس وزودوه بعض المــال وارسلوه الى مصر لقتل الشيخ الثائر .. غير ان الشاب المتحمس رأى أن يتعرف بالقصيمي قبل الاقدام على جريمته ، وما كاد يستمع الى حديثه ويصغي الى حجته ، حتى غدا من مريديه والمؤمنين برسالته ..

لقد كان في وسع القصيمي ان يهادن الخرافة ، ويغض طرفــه عن الاستبداد ، فيبلغ في بلاده المنزلة الرفيعة التي يطمح اليها الكثيرون ويتنافس من أجلها المتملقون ، ولكنه آثر ان يخوض المعركة ، وان يعيش مشرداً مضطهداً ، مضحياً بنفسه في سبيل الفكر العربي ، مقدماً حياته لاحياء الامة العربية . .

وبدلاً من ان ينافق مع المنافقين ، وينعم مع المتنعمين ، انطلق يقرع الآذان بصيحاته الحرة الكريمة في بيئة ألفت العبودية والخنوع .

أليس من المؤلم بعد هذا ان يتهم القصيمي بانه مخرب ومتآمر وخطر : وغير ذلك من النعوت التي ذاع استعمالهـــا في هــذه الايام دون حيطة ولا روية ؟!

أليس من الخفة ان نسمح لانفسنا باطلاق هــذه النعوت على مفكر عظيم ورائد مبدع كالاستاذ عبدالله القصيمي ،لانه في ابحاثه القيمة لايدغدغ غرورنا القومي وكبرياءنا العربية بل يمر بمبضعه على الفاسد من كياننـــا فيبتره بغية ان نشفى ونحيا ؟!..

ان مقال الاستاذ القصيمي حافل بالأفكار القومية التي تهدم وتبني في آن واحد ، غير ان الاستاذ سامي عطفه والدكتور عبد القادر القط قــد توقفا عند بعض هذه الافكار ، وفسراها كما يريدان ، وانتقداها بعنف ..

من ذلك ان القصيمي فرّق بين التفكير والاعتقاد « فالذين يأخذون الامور بالاعتقاد لا يفكرون والذين يأخذونهــا بالتفكير لا يعتقدون . والتفكير صورة من صور الخلق والعطاء . امــا الاعتقاد فاسلوب من اساليب الاستسلام والعبودية ، فالمفكر خالق والمعتقد مخلوق » الخ ...

وقد انتقد الاستاذ عطفه ذلك وعرّف التفكير والعقيدة تعريفاً انسكلوبيدياً فساوى بين العقيدة بمعناها الخاص التي هي تلقين وتسليم بأمور لم نعمل فيها تفكيرنا ولم نخضعها لمحاكمتنا وتجربتنا ، بالعقيدة بمعناها العام كالعقيدة السياسية التي نعتنقها عن اقتناع والعقيدة العلمية القائمة على المشاهدة والتجربة .

لا شك في ان العقيدة الدينية نفسها كانت نوعاً من التفكير يوم اعتنقها اصحابها الاولون ، ثم تغيرت حين شرعنا نعتنقها ونؤمن بها بحكم العادة والوراثة والتلقين ، بدليل ان ابناء المسلمين ينشأون مسلمين وابناء المسيحيين يعتنقون عقيدة آبائهم .. وكذلك ابناء الطوائف في كل مذهب ودين .. وليس بين هؤلاء من يعتقدون بمذاهبهم وأديانهم بعد تفكير . والذي يريده الأستاذ القصيمي « ان نصبح معتقدين ومفكرين ، او ان نعتقد لاننا نفكر اذ نحن الان لا نفكر لاننا نعتقد »

ويستغرب الاستاذ عطفه ان يصف القصيمي المعتقد بانه جبان وقاف يخشى الاقتحام ويرضى بما كان خوفاً مما قد يكون ، والمفكر بانه انسان جريء مقتحم يمضي في المجاهل ويناضل ضد الخوف . ولا يلبث الاستاذ عطفه حتى يقول : « ولكن ربما كان الكاتب يعني ان جبن المعتقد هو ركونه الابدي الى عقيدته ، وان شجاعة المفكر هي في هدمه العقيدة السائدة .. ولكن ما الذي يفعله المفكر بعد هذا ؟ الجواب هو انه يقيم عقيدة جديدة تغدو هي الاخرى سائدة ، ويكون المفكرون بهذا اذن كالاطفال يبنون بيوتهم من الحصى ثم يهدمونها لاعادة بنائها ، هذا الى ان على الناس بالنسبة لهذا الرأي ان يعرضوا عن العقائد الدينية والسياسية ، وان على ركب البشرية ان يقف ، لانه ما من سير الا وراء غاية ، والغاية هي العقيدة »

والواقع ان الافكار ليست حقائق خالدة وان بدت كذلك في عهد من العهود ، وانما هي وليدة ظروف متقلبة وملابسات لا تني تتغير وتتطور وتولد افكاراً جديدة تنسخ ما سبقها ، لان الافكار التي كانت جديدة في عهد ما لم تعد تلائم الظروف والنوازع التي استجدت في العهد الذي تلاه ، فتحولت بذلك الى عقائد جامدة وحروف متحجرة ، وبات من الواجب الثورة عليها وتغييرها ... وبقدر ما تأخذ الامة بهذا التجدد الفكري المستمر وتفتح صدرها له ، تقيم الدليل على انها امة فاعلة خالقة .

ومن يدرس التاريخ يدرك بوضوح ان الافكار الجديدة التي نهاجمها اليوم هي التي ستنتصر غداً ، فالتاريخ بجميع مراحله وفصوله شاهد قوي على ان الانطلاقة الانسانية لا يمكن ان تقف ابداً ، لانها انطلاقة الحياة نفسها ..

وعلى الرغم من ان القصيمي لم يتعرض في مقاله الى الدين اطلاقاً ، فقد شاء الناقد ان يفهم من دعوته لنا الى ان نكون امة مفكرة لا امة معتقدة ، حملة على الدين ، فمضى يدافع عنه ، ولكن قلمه خانه في مواضع كثيرة فسجل دون ان يشعر ما يستنتج منه ان الدين هو اكتشاف انساني لا وحي الهي وذلك في قوله : « لقد امضى الانسان في التأمل آلاف السنين قبل ان يكتشف الدين » وقوله : « اما العقيدة فهي نتيجة اختبار طويل للفكر الانساني » وقوله : « ان من الخطأ ان نفصل بين الفكر والعقيدة لحساب غاية ما ، او ان نهبط بمستوى العقيدة ، ذلك ان اوهام الانسان (كذا) نتاج حضارات طويلة الامد كأفكاره وهذه الاوهام هي التجلي الثاني لنشاطية العقل » وقوله : « الاسلام لا يتحمل وحده (كذا) تبعة الانحطاط في العصر الحاضر . »

بيد انه لا معنى للتهيب حتى من مهاجمة العقيدة وانتقادها ومناقشة أحكامها وتعاليمها ، اذ المفروض ان لها من ذاتها قوة ترد بها هجمات المعارضين ، فيكون الهجوم عليها معززاً لها مبرهنا صلاحها ، اما الخوف من كل نقد يوجه اليها فهو يوحي العكس ويحمل على التوهم بأنها أوهى من ان تصمد لنقد الناقدين . وقد أعطى القرآن خير مثل على ذلك حين نقل المطاعن التي وجهها المخالفون للعقائد الى الاديان والانبياء ، ولم يخش على المسلمين ان يسمعوها ، ايماناً بأن حجته هي الاقوى .

ونحن كما يقول الاستاذ القصيمي لا نشكو أزمة العقيدة بل تضخمها ، وما ابلغ قوله : « اذا كان العرب سيظلون يأبون الا ان يطاردوا تجمع الطبيعة وتفوقها فيهم ، بأن يذهبوا يخمدون كل خصائص الامتياز بينهم كيف كان نوع هذا الامتياز، فلن يظفروا من الحياة إلا بشر احتمالاتها ..

« على مَ يخشون من الحرية والتفكير ؟ هل يخشون على عقائدهم وتقاليدهم ؟ لقد اثبتت التجارب الكاملة انهم صبرجداً على ملكياتهم الروحية أوفياء لها ، وان وراءهم من الارصدة الاعتقادية ما لا يخشى عليه من النفاد ..

« ان علينا ان نطلق مارد الفكر ليلتحم بملاك الاعتقاد .. ومن التحامهما ستبرز الحقيقة الكبيرة التي لا تزال تبحث عن غيرها »

وقد بلغ من غلو الاستاذ عطفه انه أنكر ان يكون الطغيان ورجال الدين من عوامل الهدم في المجتمع العربي ، وقال ان لا طغاة في تاريخنا ، وان العرب لم يسيئوا تطبيق احكام الشرع الاسلامي .

والحق ان في التاريخ العربي عدداً غير قليل من الطغاة ، بل انك لتكاد تسمع وانت تقرأ بعض فصوله صليل السيوف ، واكتفي بالاشارة الى وقائع الصراع الدامي بين الأمويين والعباسيين والفاطميين . ولست أتصور ان احكام الشرع الاسلامي تتفق مثلاً واعمال عبد الملك بن مروان والسفاح ويزيد والحجاج !

وقد كان القسم الاعظم من رجال الدين مشايعين للطغيان مناصرين له ، يمثلون دور المحللين لشهوات الحكم والمسبحين بحمد الحاكمين . وكان الشيوخ الخرافيون ، ولا يزالون ، مصدر السحابة السوداء التي أطبقت على الشعوب العربية خلال قرون طويلة وعششت في ظلها الخرافات وأعمال السحر وقصص الجن وليالي الذكر والأحجبة والرقى والتمائم والتعاويذ وزيارة القبور والتبرك بالأولياء والمتوهبين ، وغير ذلك من الصور المظلمة التي زوت طفولتنا بالسم ، وملأتها بالرعب، وزرعتها بالعقد النفسية والجنسية فنشأنا ضعفاء جبناء ، حائرين ذاهلين ، نخشى النور ، ونعجز عن الخلق والابداع ، ونكل امورنا الى قوى غيبية ننسب اليها سلوكنا ونبرر بها هربنا من واقع الحياة ..

وفي مقال الأستاذ القصيمي ومقال الاستاذ عطفة تتجلى عقليتان مختلفتان ونظرتان الى الحياة ، فالاستاذ القصيمي ككل مصلح كبير يبحث عن عوامل الضعف في المجتمع العربي ويكشف عنها لمعالجتها والنهوض بالامة العربية الى مستوى الحضارة العلمية الصناعية الانسانية ، وهو من اجل ذلك لا يشفق على القارىء ولا يداريه بل يواجهه بالحقائق العارية ، محاولا ان يثير فيه نوازع الاقدام وحوافز التطور والتجدد ، موجهاً انظاره الى المستقبل ، داعياً اياه الى اقتحامه للبحث عن حياة أفضل ..

أما الاستاذ عطفة فهو كاتب يعيش الماضي ، وهو من أجل ذلك حريص على قداسته وصفائه ، يبرئه من العيوب وينزهه من الأخطاء ، وان فعل ذلك على حساب الحاضر والمستقبل .. حاضر العرب ومستقبلهم ..

لقد غضب الاستاذ عطفه لأن القصيمي قد انتقد بعض نواحي النقص والفساد في ماضي العرب ، أما هو فقد قال : « ان العرب في حالهم الحاضرة ضعفاء جاهلون وفاقدون لكل ما تتمتع به الامم الناهضة من حياة ومثل وتضحية » وقال : « مهما قلنا عن العرب في الحال الحاضرة فاننا نكون قد صورنا الواقع تقريباً (كذا) » وقال ان « عوامل التكوين القومي » في الامة العربية « ما تزال ضعيفة لينة الساعد » وانها امام الآراء الغربية الهدامة « لا تملك اي جهاز فعلي للمقاومة » وقال مدافعاً عن رجال الدين : « انهم افراد يتصفون بما يتصف به شعبنا جميعه (كذا) من تأخر وجهل وعدم ادراك للمرحلة الحاضرة من حياة الامة العربية »

فهل وصفت امة باشنع مما وصف بهالكاتب امته؟

ان الكاتب يبرر لنفسه ذلك بانه ينتقد حاضر الامة لا ماضيها ، وقد قال بهذا المعنى ان العلة في القصيمي « انه يتكلم دائماً عند ما يشتم العرب بصيغة الماضي ولو انه تكلم بصيغة المضارع لقلنا « حقاً انه رجل شجاع » ولقلنا عنه انه مناضل يسعى لتخليص شعبه من ورطته الحاضرة »

والذي نعلمه ان حديث القصيمي عن العرب لا يتناول الا حاضرهم ، ولا يرمي الا الى اخراجهم من وهدتهم ، وهو حين يتحدث عن التاريخ العربي فانما يستشهد به لاقامة الدليل وتعزيز الرأي واستنهاض الهمة ، اشفاقاً منه على قومه ان يظلوا حيث تركهم التاريخ منذ قرون !!

على اني لا استطيع ان افهم كيف يكون من واجبنا ان نقدس الميت من التاريخ ، ولا تثريب علينا اذا ازدرينا بالحاضر الحي ! فهل يكون المرء قومياً عربياً شريفاً اذا هاجم حكام العرب المعاصرين فوصفهم بالانحلال والفسق والفساد ، ويغدو مخرباً متآمراً اذا قال ان بين حكام العرب القدماء من اتصف بالطغيان وان هذا الطغيان كان احد العوامل الرئيسية التي أضرت بالمجتمع العربي ؟!

لقد أشار السيد عطفه الى استغلال اسرائيل لامثال هذه الابحاث في سعيها لتهديم الكيان العربي ، والجميع يعلمون ان اليهود لا يتطرقون في كتبهم وصحفهم للتاريخ العربي وماضي العرب ، بل ينتقدون حاضرهم زاعمين انهم « ضعفاء جاهلون وفاقدون لكل ما تتمتع به الامم الناهضة من حياة ومثل وتضحية » محتجين بذلك على انهم احق بالحياة من قوم لا يزالون يعيشون على هامش التاريخ وفي عقلية القرون الاولى ..

ويدهشني ان يشير الاستاذ عطفة باستهانة الى الكلمات الرائعة التي اختتم بها القصيمي مقاله منددا بالاستبداد مشيداً بالحرية والديموقراطية ، فيقول: «هذه اشياء معهودة وحتى العامي يرددها بنفس الحماس» وان يجاريه الدكتور القط فيحاول الهبوط بهذه الكلمات بقوله : « حسبك أن تقرأ كتابا واحداً في الأدب الأوربي عن تلك الموضوعات لتظفر بكثير من مثل تلك الاقوال» .

إن هذه الاقوال التي قد تجد كثيراً منها في كتاب اوروبي واحد ، والتي يرددها العامي في بلادنا بحماسة ، هي من جوامع الكلم التي تمتاز بالقوة والروعة والبلاغة المعجزة ، وهي لا تقل عن مثيلاتها من كلمات مونتسكيو وروسو وديدرو وغيرهم من اعلام الفكر .

وقد أرجع الدكتور القط تأخرنا الى الاستعمار ، والراجح انه يعني الاستعمار الغربي لأن الاستعمار التركي كان استعماراً شكلياً ، وكان في الوسع التحرر منه بمقاومة يسيرة ، ولم تشتد قبضته الا في مرحلته الاخيرة .. والواقع ان تأخرنا أسبق في التاريخ من استعمارنا ، ولعله سبب هذا الاستعمار .. وما رأي الدكتور في ان الاقطار التي لم يدخلها الاستعمار هي أشد الأقطار العربية تأخراً ؟!

والمتتبعون لاتجاهات الاستعمار واساليبه في السيطرة الباغية ، يعلمون انه يسعى اول ما يسعى لبعث التاريخ الروحي وتعزيز الخرافة ونشر المعتقدات الرجعية لانها سبيله الى اضعاف البلاد التي يسيطر عليها وتمكين أقدامه فيها .

لقد ابتلي العرب بالاستعمار ، ثم نكبوا في فلسطين ، لأن في مقدمة الاخلاق التي ورثناها عن اجدادنا ذلك الخلق الرجعي الذي يسلخنا عن حاضرنا ويتجه بتفكيرنا الى ما وراء القبور وما وراء الواقع الحي.. ولن ننهض من عثرتنا ونتحرر من نكبتنا الا اذا جعلنا من حاجتنا التاريخية الحاضرة ومن شعورنا بمسؤوليتنا القومية ، الباعث المباشر لحل مشاكلنا ووضع نظمنا واقامة مناهج الاصلاح المبدع الذي يجدد الحياة وينشىء العقول والنفوس !

في معركة الحياة وحدها ، لا في الفرار منها ، نستطيع ان نستعيد حقنا وننهض بأمتنا ، ونبني تاريخنا بناء حراً واعياً ..

والاستاذ عبدالله القصيمي ، هذا العربي الأصيل الذي هو مثل من الامثلة العليا في الثورة والابداع وعمق الثقافة وعزة النفس وسمو الروح هو نفسه دليل حي على ان العروبة لن يطول وقوفها ، وانه لا بد لها من ان تحيا وتتقدم وتنتصر .

قدري قلعجي

« طوبى للجبناء ...»

بقلم نجيب سرور

ليسمح لي الأستاذ النقاش بكلمة موجزة – قدر الإمكان – عن تعليقه على « طوبى للجبناء » في قراءته للعدد السادس من الآداب .. فلقد أثار نقطة موضوعية تستحق الاحترام وتستوجب الرد ، الا ان هذه الموضوعية

سلسلة الكتب السياسية المصورة

أضواء على السياسة العالمية

صدر منها حديثاً بقلم خيرات البيضاوي :

المانيا بين الشرق والغرب

الكتاب الذي يشرح لك شرحاً وافياً المعضلة الالمانية ومدى تأثير حلها على علاقات الشرق والغرب .

من منشورات : دار البيضاوي - بيروت

ص. ب ٢٩٩٥ تلفون ٣١٣٠٧

الثمن ١٠٠ ق.ل

تقريرية في نفس الوقت اذ ينقصها التدليل . فهي موضوعية فقط من حيث تعلقهـــا بقضية لا بمحض ذوق شخصي ، وكنت أتمنى لو لم يسرع الاستاذ النقاش في القراءة او على الاصح لو دال على هـــذا الحكم الخطير الذي أصدره حين قال ان قصيدتي تبرر « التخلف عن حمل السلاح في وجـــه غاصب أجنبي » ... ورغم انني أحتاج هنـا الى خمس صفحات من الآداب فانني سأحاول ان اقول شيئاً وان اعرض للقصيدة في الحدود التي تكفي لدحض هذا الحكم مراعياً في ذلك ضيق المجال .

ثمة مسافة ظلت قائمة بيني وبين الجندي حتى نهاية القصيدة فلقد تركته يحكي دون ان اقتحم سياقه،وترتب على هـــذا انني لم أتورط في وعظ او خطابة وانما جاء كل شيء مضمنا وبطريقة بنائية إيحائية، وموزعا على طول التجربة مع ارتباط بين الاجزاء في وحـــدة متماسكة متكاملة توحي في النهاية شيئاً .. اقتراحاً .. هو النقيض مما ظنه الاستاذ النقاش ، وانما جاء هذا الظن من النظرة الجزئيـــة غير التركيبية تلك التي تقف عند العنوان ثم تنتزع فقرة تلوح وحدها شيئاً وتلوح في النسيج شيئاً اخر . فالعنوان : « طوبى للجبناء » لا يأخذ معناه من ذاته ، وانما هي القصيدة التي تعطيه المعنى . والاقتراح الذي توحيه القصيدة لا يجيء في فقرة او في جملة او في العنوان بل يتكامل باستمرار من المستهل حتى الختـــام بطريقة كما قلت بنائية ... وبصرف النظر عن المقدمة النثرية التي لا تدخل في بناء القصيدة كما لا تفقد القصيدة شيئاً بحذفها لانها — المقدمة — زيادة فائدة .. مجرد تعريف القارىء بالمثير الذي خلق التجربة وهو هذا الحديث للجنرال ماياك وست الذي قرأته في احدى الصحف . بصرف النظر عن هـــذه المقدمة يتعين علي اولاً ان اذكر الاستاذ النقاش بابناء تونس والجزائر ومراكش الذين كانوا يساقون ليذبحوا في الهند الصينية ... و « من أجل من ؟ » من اجل فرنسا .. وبأبناء المستعمرات الانجليز وابنـــاء الدول الخاضعة للنفوذ الاميركي ، الذين ذبحوا في كوريا من أجـل مصالح الاستعمار ، ثم بالملايين التي ذبحت في الحرب العالمية الثانية من البلاد الخاضعة للمستعمرين .. وبألوف المصريين الذين دفنوا في خنادق فلسطين في الحرب العالمية الاولى من اجل انكلترا .. كل هذا من اجل الاستعمار .. وهـــذا يحدد مجال « طوبى للجبناء » وستعرفون ان القصيدة تحتمل فرضين ليس من بينهما فرض « حمل السلاح في وجه غاصب اجنبي » هـــذا الفرض الذي اقحمه الاستاذ النقاش على القصيدة ثم عاد فحكم بان القصيدة دعوة إلى الجـــبن والخيانة والهزيمة .. فليست المشكلة « لماذا نموت ؟ » كما يبـــدو للقراءة السريعة وانما هي « لماذا نموت في معركة ليست هي معركتنا ؟ » وهذا ما تثيره « طوبى للجبناء » ويقوم عليه اكثر من دليـل . فالحرب التي تصدر عنها القصيدة حرب غير مبررة ، غير مشروعة ، حرب عدوانية استعمارية وليست حرباً تحريرية ولا دفاعية.. والشيء الذي يحتاج الى اقتراح هـــو الحرب غير المبررة لا الحرب المبررة.هناك فرضان تحتملهما «طوبى للجبناء»: اما انها حرب تشنها الحكومة الوطنية للعدوان أي من اجل مصالـــح استعمارية تشبع شره طبقة معينة فتساق الملايين من الشعب الجائع العاري الشقي لتموت من اجل مصالح هذه الطبقة .. مثالهـا الحكومة الالمانية في الحربين العالميتين — الاولى والثانية — بالنسبة للشعب الالماني . واما انهـا حرب تشنها حكومة اجنبية من اجل مصالح استعمارية فتسوق ابنـــاء المستعمرات الخاضعة لها الى خطوط النار .. كفرنسا بالنسبة لتونس والجزائر ومراكش . وفي الفرضين تكون الحرب غير مبررة ، الاولى في نظر الجندي الالماني ، والثانية في نظر الجندي التونسي والجزائري والمراكشي .

والمعركة الحقيقية والمشروعة والمبررة بالنسبة للجندي الالماني — وهـــو ينتمي دائماً الى الطبقات الشقية الفقيرة — يجب ان تكون ضد الطبقة المستغلة في وطنه .. تلك التي تشن الحرب للشره والتضخم وتنـــازع الاسواق . وليس لاحد ان يحدث هذا الجندي عن الوطنية وواجب المواطن .. إذ من حقه ان يرفض هذا التشدق بالوطنية .. ان الوطن في هذه الحالة يصبح اكذوبة ، خدعة ، تبريراً مغرياً لحرب تلتهم الطبقات الكادحة وتشبع شره الطبقات الحاكمة .. ورفضه لهذه الاكذوبة وهذا التبرير ليس خيانة او جبناً .. ولا يتعارض اطلاقاً مع حبه لوطنه .. هـــذا الفرض جسده الروائي الالماني « اريك ماريا » في روايته « الهدوء في الميدان الغربي » فلم تكن المعركة مشروعة ولا مبررة ولا حقيقية بالنسبة لكل من « مولر كروب ، كمريخ ، بول بومر » الطلبة ، « كات » الاسكاف، « هاي ديستوس » الحطاب ، « جادن » الحداد ، « ديترنج » الفلاح .. وغيرهم وغيرهم من الصيادين والفلاحين والعمال. لقد كانوا الوقود، كانوا القطيع .

والمعركة الحقيقية والمشروعـــة والمبررة بالنسبة للتونسي والجزائري والمراكشي يجب ان تكون اولا ضد فرنسا المستعمرة وثانياً ضد الطبقة الوطنية المستغلة التي ترتبط دائماً باستعمار كظهير لها.و« طوبى للجبناء» تتمشى مع هذين الفرضين في حدود لسان الحال وبطريقة كما قلت تضمينية .. وهي لا تحتمل فرض دفاع أو تحرير : فمنذ البداية نحس ان الحرب غير مبررة في نظر الجندي الذي يحكي .. فهـــو لم يذهب الى الحرب كما يذهب الجندي للدفاع أو للتحرير وانما « أتوا يتنقون خراف الفداء ، وساقوا القطيع ، الى ساحة غطيت بالجيف»

«خراف» ، «ساقوا» ، «القطيع» .. كلها تصوير للجبريـــة والقهر وانعدام المبرر . ثم هم يخدعونـــه اذ يلبسون المسوح ويبررون له الحرب بأكاذيب لم يقتنع بها .. هذا التبرير وان كان يأخذ من القصيدة صورة دينية الا ان هذه الدينية محض رمز لشتى الاكاذيب التي يخدع بها المستعمرون شعوبهم ليسوقوها الى المجازر من اجل مصالح ليست هي مصالح هذه الشعوب ... وقالوا ، هنا قبلة الصالحين هنا المعبد ، هنا تستجاب صلاة العبيد ، وتؤتى الزكاة »

فاذكروا أكاذيب هتلر .. وموسوليني .. الخ .. الجندي يؤكد دائماً انه غير مقتنع بهذه الاكاذيب وانها حرب عدوانية لا حرب تحرير او دفاع : «مضوا يقصبون وهم ينشدون، نشيد الدمار، رب الدمار »ثم هذا

هذه المجلة

طبعت في مطابع « الآداب » الـــتي تعلن استعدادها لطبع الكتب والمجلات والنشرات التجارية طبعاً أنيقاً وسريعاً ، على آلاتها الاوتوماتيكية .

بيروت — الخندق الغميق — شارع الشدياق

ص . ب ١٠٨٥ تلفون ٢٦٩٩٦

السؤال الذي يجري على لسان زميل له في المعركة الكاذبة .. العدوانية : «لماذا نموت ومن اجل من »يؤكد اكثر وأكثر انعدام المبرر لهذه الحرب.. يؤكد طابعها العدواني . ثم قوله «لماذا نموت؟» يعطي القضية طابعها الجماعي فلقد جاء السؤال بلسان «النحن» لا بلسان «الأنا» .. ، «من اجل من» فضلا عن كونها تؤكد انعدام المبرر .. تؤكد عدم مشروعية هذه الحرب فانها تجسّد عدم ارتباط الجندي وجدانياً وذهنيا بالمعركة .. هذا الارتباط الذي لن يتوفر الا في حرب تحريرية او دفاعية لا في حرب عدوانية . فاذا جاء الرصاص ومات السؤال على شفتي زميله انعطف الجندي فجأة بفكره ووجدانه الى قريته .. وهذه النقلة السريعة والمفاجئة من الميدان الى القرية تؤكد انعدام المسافة بين السؤال الذي مات وبين أولئك الذين سودت«جلودهم سياط الهمج» .. اولئك الذين» يدقون ارض الشقاء العنيد، يبثون للارض حقد العبيد ، بفأس حديد »

اجل انه يعرف ان المعركة الحقيقة هناك من وطنه في اجل اولئك الاشقياء .. هناك في الوطن الذي يحتضن قريته المعذبة وضد هؤلاء الذين يستغلون ابناء وطنه ويسوقونهم الى هنا .. الى الموت .. وبذا تأخذ « من اجل من ?» دلالة اوسع من مجرد التعبير عن عدم مشروعية الحرب .. ثم اذا كانت قريته من البؤس بحيث تعتبر عودة الفلاحين كل مساء من الحقول انتصاراً على الموت .. فلماذا يموت هنا ? «وعند الغسق ، سيأتي أبي حاملا فأسه ، على وجهه بسمة المنتصر ، وغار العرق ، ففي قريتي يعيشون والموت في معركة »

ثم هناك قصة أبيه الذي سيق يوما كما سيق هو .. بلا مبرر :«من الدار للنار المقبرة »

وبعد تطوير للتجربة يحتاج الى تحليل طويل .. يصرخ : «أريد أعيش»

وكل المقدمات تعطي «اريد أعيش» دلالة معينة.. انها تأخذ معناها من مجراها .. من وحدة النسيج . فهو ينشد الحياة ، العودة الى وطنه ، الى أمه وزوجه وولده ، الى ارض المعركة وتركيزه الملحوظ طوال التجربة على أزمة الحياة في وطنه لا يتصور معه ان يقنع في هذا الوطن — فيا لو عاد اليه — بمحض حياة مأزومة أحس قسوتها وهو يعاني قسوة الميدان . اذ سيشعر هو الواعي بان عليه ان يصرخ في وطنه من جديد كما صرخ هنا في الميدان «أريد اعيش» وليس معناها انه ينشد مجرد الحياة . بل ينشد الا يموت في هذه المعركة التي ليست معركته الحقيقية . وفي المحاكمة يرد على لسانه : « وأنشودة لاله الدمار ، وطاف يباركهم ربهم »

اعرفتم هذه الارباب .. اعرفتم من الذي حكم على الجندي بالاعدام?

ثم هو يسخر من غار البطولة الذي يخلعه اصحاب المصالح على من يقتل في سبيلهم حيث يعتبرون ذلك الذي يرفض ان يموت من اجلهم جباناً يجب ان يجلله العار !

وبعد .. هل صحيح انني كنت اقدس الجبن كما قال الاستاذ النقاش ? وهل يأخذ العنوان معناه القاموسي ام معناه الاستعمالي ? وهل تحتمل «طوبى للجبناء» فرض «التخلف عن حمل السلاح في وجه غاصب اجنبي»?إن القصيدة تصحح بعض القيم ولا تلغي بعض القيم كما ظن الاستاذ النقاش او هي تلغي القيم الباطلة الكاذبة ولكنها لا تتنكر لقيمة انسانية .. انني لم اقدس الجبن وأنا كنت أمجد بطولة هذا الجندي التي قلبتها المصالح جبنا يحاكم عليه بالاعدام .. وليت شعري كيف يعد هذا البطل جبانا ? انها البطولة الحقة .. والشجاعة الصادقة، وانا لفي حاجة الى مثله من ذوي القلوب الرحبة الكبيرة *

القاهرة — **نجيب سرور**

* قرر الأستاذ النقاش أني تحررت من « الوزن والقافية» والصحيح اني تحررت من القافية وحدها .. !!

نحن ... والابطال

بقلم عبد المنعم عواد يوسف

« إن البطل حر يقرر لنفسه ما يشاء ازاء الخطوب والمواقف ، وهو لا يرجع الا لذاته ، ليحكم من داخلها على مقدار التلقائية التي يواجه بها العالم والآخرين » ١

متى تتوفر لكائن ما الحرية ? وهل « لمخلوق » الحرية ان يقرر مصيره ? ام ان هذا المصير رهن تصرف « الخالق »? هذا هو السؤال ..

ان الحرية لا تتوفر لكائن ما ، إلا اذا انتفت صفة « المخلوقية » عنه، وعلى هذا يكون كل « مخلوق » غير حر ، ليس له ان يقرر مصيره بنفسه ، فهذا من حق « خالقه » وحده ، وسلوك كائن ما « مخلوق » في الحياة ، انما يجري وفق خط سلوكي معين رسمه « الخالق » ، بحيث يكون أي انحراف — ولو قليل — عن هذا الخط المرسوم خروجاً على الواقع ومجافاة للوضع السليم ..

وعلى هذا الاساس نستطيع ان نقرر ما اذا كان بطل الرواية « مخلوقاً » ام لا .. وبديهي ان بطل الرواية « مخلوق » ، وعليه فليس له الحق في ان يقرر مصيره بنفسه ، فالحرية منتفية عنه مادامت تلازمه صفة « المخلوقية » هذه ..

هل كان لكائن كـ « سدني كارتون » مثلا في رواية « قصة مدينتين » ان يصرخ ، والعربة في طريقها الى المقصلة ، « ايها الناس .. اوقفوا العربة .. انزلوني .. انني لست (تشارلز دارني) ، وانما انا شبيهه ، أسرعوا واقبضوا عليه قبل ان يعبر اسوار باريس » .. ان « كارتون »

١ انظر مقال الاستاذ « محي الدين محمد » ، الآداب — العدد السابع

صدر حديثاً عن دار المعارف

المثاني

للدكتور عبد الوهاب عزام

هو ابيات نظمها صاحبها في اوقات شتى ، وكانت اولى هذه الخطرات من وحي شاطيء بحر العرب حيث تطل مدينة كراتشي بتاريخها الحافل الطويل. وصدرت هذه الخطرات الشعرية في مجموعة « في ظلال الوحي » التي تصدرها دار المعارف في اخراج انيق حتى تلتقي رسالة الشعر الرائع مع رسالة الفن الجميل .

ثمن النسخة ٢٥٠ غ ل

يطلب من متعهد التوزيع دار المعارف بيروت

لصاحبها ا . بدران

بناية العسيلي — السور ص ب ٢٦٧٦ تليفون ٢٣٥٧٤

ومن المكتبات الشهيرة في البلاد العربية

لو فعل هذا لكان حقاً حراً ولكن من اين له هـذه الحرية وهو كائن « مخلوق » ؟ .. وحتى لو فعلها لما كان الامر مستساغاً ، بل لعد ضعفاً في « التكنيك » الروائي يلصق بالمؤلف .

لنتصور معاً ان كاتباً روائياً رسم لنا في صفحات شخصية واعظ ورع ، ثم ذكر لنا كيف خرج من المسجد ، والنـاس من حوله يتبركون به ويسألونه الدعاء ، وكيف انطلق في طريقه يحف به مجموعة من مريديه ، الى هنا والامور تسير في وضع سليم ، لنتخيّل بعدذلك كيف يكون وقع الامر على نفوسنا لو ان الكاتب ذكر لنا ان هـذا الواعظ التفت الى مريديه وقد صادفتهم « حانه » في الطريق قائلاً: « معذرة ايها السادة .. أستأذنكم في الدخول لتناول كأس من النبيذ ... هل يرغب احدكم في مشاركتي الشراب ؟ » ألن يكون هذا خطأ جسيما يقـع فيه المؤلف .. ولكن متى يكون هذا العمل « حرية » من البطل في تقرير اموره ؟ يكون هذا لو ان المؤلف ذكر لنا تبريراً لهذا السلوك الشاذ مُن واعظ كان يقول لنفسه مثلاً « الى متى أظل عبداً لهذه الاوضاع ، لاحـاول مرة الخروج على وضعيتي كواعظ ، وليذهب الناس جميعاً الى الجحيم ... وهنا نختلف مع الاستاذ محيي الدين محمد الذي يقول:« ليس للمؤلف ان يبرر هذا السلوك المفاجيء والمخالف لنفسية البطل ...»

ما دمت مخلوقاً ، فلست حراً ، هذه هي الحقيقة ، وعلى هذا فنحن جميعاً عبيد ، لاننا مخلوقات ، فسواء كان الانسان متديناً أم ماركسيـا ، ام وجوديا ، فهو عبد ، لانه مخلوق ، فالاول خالقه « الله » والثاني خالقـه «ماركس» ، والثالث خالقه «سارتر» مثلاً ، والانسان في كل هذه الصور من «المخلوقية» يسير وفق خط معين من السلوك ، ونحن نستطيع ان نخمن ماذا يفعل ، ازاء موقف من المواقف ، ثلاثة اشخاص ، احدهم متدين ، والثاني «ماركسي» والثالث «وجودي» ، فأذا كان هذا شأننا – ونحن المتحكمون ، الى حد ما ، بظروفنا ، والذين نملك حرية تغيير معتقداتنا ، وبالتالي صورة «الخلق» التي نحن عليها – فما بالك بأبطال القصص الذين هم في الواقع دمى في يد المؤلف يلعب بها كيف يشاء ..

ولكن من الممكن ان يكون بطل الرواية حرا تماماً؟ ، هذهالحرية التي تجعله «يتكلم بحمق ، ثم يتراجع ويحكم بنزقه .. ثم يندفع للحمق ثانياً . مؤكداً حريته .. ولصوق حالته بالطابع البشري على الصعيد العام[1]»

اجل من الممكن ذلك ، ولكن في حالة واحدة ،هي ان يجعله المؤلف متجرداً من اي لون من الوان «المخلوقية» ، حراً تماما ، لا يؤمن بشيء الا بانسانيته ، يتصرف وفق ظروفه ، دون خضوع لمعتقد من المعتقدات أو من الافكار تستعبده ، وتملي عليه تصرفات بعينها ..

هناك سؤال أخير .. هل يستطيع البطل ان يفلت دائماً من دائرة وعينا بحيث تصدر عنه ، بصورة متجددة ، افعال لم نكن نتوقعها منه ؟ ..

يخيل الي انه لن تدوم له هذه القدرة على الافلات مـن فخاخ وعينا طويلاً ، فسيأتي علينا الوقت الذي نتوقع فيه دائماً ان البطل سيسلك سلوكاً لايتفق مع منطقية الحوادث وتسلسلها ، ومن ثم فسنحاول ان نأتي له من طريق آخر ، وقد نعجز مرة عن ادراك ما سيفعله بعد ذلك ، ولكن هذا الادراك سيصبح امراً ميسوراً بعد تكرار ممارسة هـذا اللون من محاولة اقتناص افعال البطل وتصرفاته فيما يستقبل من الحوادث ..

القاهرة **عبد المنعم عواد يوسف**

[1] كلام الاستاذ «محيي الدين محمد ».

روايات اليوم

السلسلة الروائية المفضلة

التي قدمت لك

البؤساء

٣٠ يوماً بين الامواج

رصيد البنك الكبير

غادة الكاميليا

تقدم لك اليوم

رائعة اسكندر دوماس الخالدة

الفرسان الثلاثة

اجمل قصص الفروسية والمغامرات

- تصدر في ثلاثة اجزاء متتالية
- ترجمة كاملة باسلوب رشيق
- طبع انيق مع غلاف ٥ الوان
- ثمن الجزء الواحد ٧٥ قرشاً

- الجزء الاول يصدر في ١ ايلول القادم
- والثاني في ١٥ ايلول
- والثالث في ١ تشرين الاول

توزيع المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر